البحث (١١)

شبهات (ول ديورانت) حول القرآن الكريم عرض وتفنيد

د / محمد محمد العاصي

جامعة الأزهر

[illegible]

مقدمة

الحمد لله .. فاطر السماوات والأرض وبارئ النسم .

يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ويحي الأرض بعد موتها ، ويوجد الأشياء من العدم .

خلق الإنسان وعلمه ما لم يكن يعلم .

وتبارك الله فيما أخر وقدم ، ونقض وأبرم ، وأبدع ونظم .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ... خير معلم .

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

أما قبل :

فقد كان لقاؤنا في العام الماضي ، وعلى صفحات هذه الحولية المباركة مفتتح دراستنا هذه عن :

شبهات المستشرق " ول ديورانت " حول الإسلام .

وكان البحث السابق مقدمات ضرورية لهذه الدراسة ، تناولنا فيه :

– ترجمة لـــ " ديورانت " ... ثم ومض البحث ومضات خفيفة حول مدرسة الاستشراق الأمريكي التى ينتمي إليها .

– التعريف بالكتاب موضوع الدراسة ، وهو الموسوعة التاريخية : قصة الحضارة ، من خلال لمحة وصفية لأهم ما تضمنه

– ثم عذدنا بعض مواطن الإنصاف عند "ديورانت". كمقدمة ضرورية قبل الولوج في ساحة عرض الشبهات وتفنيدها [١] .

ولقد تواعدنا – قارئي العزيز – في خاتمة صفحات البحث السابق أن نلتقي ، لنواصل المسير حتى نصل إلي أكرم مصير ، في محاولة جادة لإكمال هذه الدراسة ، بظهور هذا الجزء الأوسط منها . والذي يهدف إلي : عرض شبهات " ديورانت " حول القرآن الكريم ، وتفنيدها .

وقد سميت هذه الأطروحة :

البحث الثاني : شبهات " ديورانت " حول القرآن الكريم عرض وتفنيد .

هذا،وقد اقتضت خطة هذا البحث أن يعقب هذه المقدمة مطلبان:

المطلب الأول : عرض شبهات " ول ديورانت " حول القرآن الكريم ويشمل :

أولاً : شذرات على طريقة عرض " ديورانت " للقرآن الكريم .

ثانياً : من مواطن الدقة عند " ديورانت " .

ثالثاً : **شبهات** : " ديورانت " حول القرآن الكريم :

الشبهة الأولي : زعمه أنه (ﷺ) هو الذي ألَّف القرآن .

الشبهة الثانية : حول جمع القرآن وترتيب سوره .

---

(١) راجع : حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية ، ص ٦٨٣ – ٧٦١ ، العدد الثاني والعشرون لعام ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م ، ط دار حنون للطباعة.

الشبهة الثالثة : حول لغة القرآن .

الشبهة الرابعة : حول عموم لفظ القرآن وخصوص السبب فيه

المطلب الثاني: تفنيد شبهات "ديورنت" حول القرآن الكريم ويشمل:

نظرة في العرض لتحديد مسار الرد .

أولاً : الأدلة على أن القرآن الكريم كلام الله تعالي .

ثانياً : القرآن : جمعه ، وترتيبه ، ووحدته الموضوعية .

ثالثاً : هل في القرآن شعر ؟!

رابعاً : فقه العموم والخصوص في القرآن : آية الحجاب أنموذجاً

خاتمة : وتشتمل على أهم نتائج البحث .

ذلك : ولقد اتبعت في هذا البحث المنهج المتكامل الذي يشمل التحليل والاستنباط في عملية العرض ، والنقد في عملية الدحض والتفنيد .

وأسأل الله أن أكون قد وفقت

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

المطلب الأول

عرض شبهات (ول ديورانت) حول القرآن الكريم

ويشمل :

أولاً : شذرات على طريقة عرض " ديورانت " للقرآن الكريم .

ثانياً : من مواطن الدقة عند " ديورانت " .

ثالثاً : شبهات " ديورانت " حول القرآن الكريم :

الشبهة الأولى : زعمه أنه (ﷺ) هو الذي ألَّف القرآن .

الشبهة الثانية : حول جمع القرآن وترتيب سوره .

الشبهة الثالثة : حول لغة القرآن .

الشبهة الرابعة : حول عموم لفظ القرآن وخصوص السبب فيه .

أولاً : شذرات على طريقة عرض " ديورانت " للقرآن الكريم .

تناول المستشرق " ول ديورانت " كتاب الدعوة الأول : القرآن الكريم في الباب التاسع من الجزء الثالث عشر في المجلد السابع بموسوعته : قصة الحضارة .

سبقه الباب الثامن الذي تحدث فيه عن محمد (ﷺ) [١] .

وتبعه الباب العاشر : والذي عنونه بـــ : سيف الإسلام [٢]

وقسمه إلى فصول أربعة ، هي :

الفصل الأول : شكل القرآن [٣] .

وقد أكد من خلاله على أن القرآن يتكون من " أجزاء جمع بعضها إلي بعض ... ويعتقد المسلمون أن كل حرف منه موحي به من عند الله ... وكان كل ما يوحي إلي النبي (ﷺ) يكتب على الجلود أو سعف النخيل أو العظام ... وأن كل فقرة منه تؤدي إلي غرض واضح مفهوم : فهي إما أن تقرر عقيدة ، أو تأمر بصلاة أو دعاء ، أو تسن قانوناً ، أو تشهر بعدو ، أو توجه إلي عمل ، أو تروي قصة ، أو تدعو إلي قتال ، أو تعلن نصراً ، أو تصوغ عهدا ، أو تنظم شعيرة دينية ، أو تضع نظاماً للتجارة [٤]

---

(١) ١٣ / ٦ – ٤٧ .

(٢) ١٣ / ٧٠ – ١٠٥ .

(٣) ١٣ / ٤٨ – ٥٢ .

(٤) راجع : قصة الحضارة ، ول ديورانت ، ترجمة : محمد بدران ، المجلد السابع ، ١٣ / ٤٨ ، ٤٩ – ٥ – ١٣ / ٥٣ – ٥٨ .

الفصل الثاني : العقائد (١) ، كما قررها القرآن .

ومن خلاله يشرح كيف قرر القرآن أن الله تعالي هو : منشئ الحياة ، ومصدر كل خير على ظهر الأرض ... وأنه أيضاً إله القوة الذي رفع السماء بغير عمد ترونها ... وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى ، ... وأن الله مع سلطانه وعدله رحيم أبداً : فكل سورة من سور القرآن – ما عدا سورة التوبة – وكل رسالة يكتبها مسلم متمسك بدينه تبدأ بتلك العبارة الفخمة : بسم الله الرحمن الرحيم .... وأن الله يعلم المستقبل كما يعلم الحاضر والماضي فكل الأشياء سابقة في علمه، وكل شيء قد تقرر وتحدد بإرادته (٢) .

ويمضي " ول ديورانت " في فصله هذا مؤكداً أن القرآن قرر عقيدة المسلمين في الملائكة والجن والشيطان (٣) . وأنه رسم صورة واضحة للجنة ... وما فيها من متع (٤) .

الفصل الثالث : القرآن والأخلاق (٥) .

وقد حاول فيه " ديورانت " أن يشرح كيف أن القرآن يشمل قواعد للآداب ، وصحة الجسم ، والزواج والطلاق ، ومعاملة الأبناء والعبيد والحيوان،والتجارة،والسياسة،والوصايا ... والحرب والسلم (١)

---

(١) ١٣ / ٤٨ – ٥٢ .
(٢) قصة الحضارة ، ١٣ / ٥٤ ، ٥٥ .
(٣) السابق ، ١٣ / ٥٥ ، ٥٦ .
(٤) نفس المرجع ، ١٣ / ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٢ .
(٥) بين دفتي ص ٥٩ – ٦٤ .

الفصل الرابع : القرآن والدين والدولة [٢] .

وهو – كما ترى – عنوان علمي كبير ، لكن – وللأمانة العلمية في العرض – لم أجد في الصفحات الخمس التي ساقها " ديوارنت " ما يرمي إلى هدف محدد من عنوانه ، أو يوضح مقصداً من كلامه ، وهذا ما سنوضحه فيما بعد إن شاء الله تعالى

ثانياً : من مواطن الدقة عند " ديورانت " :

إذا كنا قد وضحنا في النقطة السابقة كيفية تناول 'ديورانت' في عرضه عن القرآن الكريم في موسوعته من خلال الفصول الأربعة ، فلأمانة البحث ونزاهة الدرس ، نشرع – إن شاء الله تعالى – في بيان بعض مواطن الدقة في عرض " ول ديورانت " مؤكدين على :

أ – هي مواطن دقة وليست مواطن إنصاف ، كما جرى على ذلك جمع غير قليل من الباحثين في ميدان الاستشراق ... **لماذا** ؟

لأن الإنصاف يقتضي أن ينصر المنصف المتصف من نفسه ، إذا كان مظلوماً له ... وما هكذا الإسلام ... فليس مظلوماً 'لديورانت' ولا لغيره ، حتى إذا ما تكلم مستشرق كلاماً دقيقاً في ديننا ، هللنا له ، ورفعنا له القبعات ، وقلنا : فلان أنصف الإسلام في كذا وكذا .

وإني لأتساءل : لماذا – ودائماً – نضع الإسلام في الموقف الضعيف الذي يستجدي كلمة في حقه من هذا أو ذاك . كلا . كلا . فما وضحه ديورانت متفقاً مع صحيح فكرنا الإسلامي كما وضحه أئمتنا وروادنا ...

---

(١) راجع : قصة الحضارة ١٣ / ٥٩ .

(٢) في خمس صفحات ، من ٦٥ – ٦٩ .

هذا – إن حدث – مواطن دقة ، صحت مقدمات البحث فيها ... فجاءت النتيجة حتمية صحيحة تابعة لتلك المقدمات !!

ب – وفي الصورة المقابلة : نحن نعطي الدرس عملياً – ومن خلال هذا البحث – حين نقدم ما كان المستشرق دقيقاً في عرضه ، مشيدين به ، مؤكدين عليه .

أما ما اشتبه عليه والتبس واختلط ، سوف نفرد له عرضاً ، ونعقبه بعون الله تفنيدا ، ولسوف نحمله على أقل ما يمكن حمله ، مستبعدين العداء الداكن – مؤقتا – معولين على نقص الأدوات العلمية في البحث فقط ، على نحو ما أكدناه قبلاً .

ج – ومن حقنا أن نتساءل : هل كل المستشرقين أخطأ علميا فقط ، وانتهت القضية ... ثم لماذا الخطأ العلمي في الإسلام فقط دون غيره من الأديان ؟! .

ولماذا هذا الجيش العرمرم من المستشرقين الذين أخطأوا علميا فقط في الإسلام ؟!!

أم انه العداء الذي ليس وراءه وراء ، والذي يخطط للتدمير والفناء ، وإن زوق ألفاظه وزينها ببعض الثناء ؟!!

وتلك قضية يجيب عنها كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد !؟

ومهما يكن من أمر ، فإننا نعرض لبعض نماذج الدقة عند "ديورانت" في تناوله للقرآن الكريم .

وها هي ذي بعض النماذج :

الأنموذج الأول : حول مكانة المرأة في الإسلام :

وقد ظهر هذا من تأكيد " ديورانت " على أن القرآن : " رفع من مقام المرأة في بلاد العرب ... وهو يهيب بالرجال ألا يكونوا عبيداً لشهواتهم ... ومن صور هذا التكريم : أنه سمح للنساء أن يحضرن الصلاة في المساجد ... وقضى على عادة وأد البنات ... وسوى بين الرجل والمرأة في الإجراءات القضائية والاستقلال المالي ، وجعل من حقها أن تشتغل بكل عمل حلال ، وأن تحتفظ بمالها ومكاسبها ، وأن ترث ، وتتصرف في مالها كما تشاء [(١)] .

الأنموذج الثاني : حول أثر عقيدة الإسلام في وحدة المسلمين

بعد أن تحدث عن بعض أبعاد العقيدة الإسلامية ، أتبع ذلك قوله : " تلك بلا مراء عقيدة نبيلة سامية ألفت بين الأمم المتسامية المنتشرة في قارات الأرض فجعلت منها شعباً واحداً " [(٢)] .

الأنموذج الثالث : حول أثر القرآن في أمة الإسلام :

ويجب أن ننوه أن هذا هو ما ختم به " ديورانت " حديثه عن القرآن الكريم ، فقد قال : " وقد كان له (أى القرآن الكريم) أكبر الفضل في رفع مستوي المسلمين الأخلاقي والثقافي ، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية ، وحضهم على اتباع القواعد الصحية ، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام ومن الظلم

---

(١) ينظر : قصة الحضارة ، ١٣ / ٦٠ .

(٢) السابق ، ١٣ / ٦٦ .

والقسوة ، وحسن أحوال الأرقاء ، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة ، وأوجد بين المسلمين – إذا استثنينا ما كان يقترفه بعض الخلفاء المتأخرين – درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض ، ولقد علم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة ، ويتحملوا قيودها بلا شكوي ولا ملل ، وحثهم في الوقت نفسه علي التوسع توسعاً كان أعجب ما شهده التاريخ كله ، وقد عرّف الدين وحدده تحديداً لا يجد المسيحي ولا اليهودي الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله (١).

وما ختم به " ديورانت " حول القرآن الكريم ، نختم به هذه النماذج مما عرضه " ديورانت " عرضاً دقيقاً أميناً صحيحاً جاء متسقاً مع الدين الإسلامي ، ومساوقا لما قرره الأسلاف والأخلاف من علمائنا

وهذا كله لا يمنع ان نؤكد أن ما كان " ديورانت " فيه دقيقاً هو قليل ... قليل بجوار ما التبس عليه فيه ، واشتبه أمره عليه فصار حكمه فيه غير صائب ، وقوله فيه مجافيا لصحيح الإسلام

مما يوجب علينا الحديث في النقطة القادمة .

---

(١) قصة الحضارة ١٣ / ٦٩ .

ثالثا : شبهات " ديورانت " حول القرآن الكريم :

منهجه في إثارة الشبهات :

يتضح من ملامح " ديورانت " في إثارة الشبهات حول القرآن،أنه :

أ – دائم الربط بين القرآن الكريم والتوراة والإنجيل ، بدا ذلك في أجواء عرضه كلها :

ففي بداية العرض ، وفي أول سطر فيه ، قال : " لفظ القرآن مشتق من القراءة ، ويطلق على كتاب المسلمين كله أو على أى جزء منه ، وهو يتألف كما يتألف الكتاب المقدس ، كتاب اليهود والمسيحيين من أجزاء جمع بعضها إلي بعض . ويعتقد المسلمون أن كل حرف منه موحى به من عند الله ، ويختلف عن التوراة في أنه كله نطق به رجل واحد " (١) .

وتابع هذا الربط–على اطراد–في كثير من المواضع منها :

قوله عن طريقة نزول القرآن : " وتلك هي الطريقة التى سار عليها أنبياء بني إسرائيل ، وهي التى نراها في كثير من فقرات أسفار موسى الخمسة (٢) .

وكذا قوله : " والمحور الذي تدور عليه المبادئ الأخلاقية في القرآن ، كما هي الحال في كتاب العهد القديم ، وهو خوف العقاب ورجاء الثواب في الحياة الآخرة " (٣) .

---

(١) قصة الحضارة ، ١٣ / ٤٨ .

(٢) السابق ، ١٣ / ٥١ .

(٣) ذاته ، ١٣ / ٥٦ .

وأعتقد أن هذه النماذج تكفي لإثبات سعيه الدائب والدائم للربط بين القرآن الكريم والتوراة والإنجيل .

ب – وكذلك من ملامح منهج " ديورانت " في إثارة الشبهات حول القرآن أنه : يلقي شبهته واضحة ، تصل إليها دون عناء ، في كلام وألفاظ لا تحتمل لبسا أو غموضا أو تداخلاً ، مما يؤكد صحة منهجنا الذي اعتنقناه في هذا البحث أنها أخطاء علمية ، وقع فيها " ديورانت " لعدم اعتماده على المراجع الأصلية التي تعرض الإسلام بأقلام أهل الإسلام .

ولقد ترك نفسه فريسة للمستشرقين يأخذ عنهم ، وكتبهم مملوءة بالخطايا والأباطيل .

وعلى أي حال فلنترك هذا ، ولننتقل إلي ما أثاره " ديورانت " من شبهات حول القرآن الكريم ، قبل أن نشرع – بعونه تعالي – في تفنيدها ودحضها .

الشبهة الأولى : زعمه أن النبي (ﷺ) هو الذي ألف القرآن :

أبعاد الشبهة : أخذ عرض "ديورانت" لهذه الشبهة عدة أبعاد:

البعد الأول : زعمه أن النبي (ﷺ) نظر بذكائه وثاقب فكره إلي حال الأمة العربية فوجدها في حاجة إلي دين جديد ، فتحمل هو أعباء هذا الدين وقام بتأسيسه .

وذلك قوله : " لعله قد بداله (أى للنبي ﷺ) أن حال بلاد العرب إذا قورنت بما تأمر به المسيحية واليهودية حال بدائية لا تشرف ساكنيها ، ولهذا أحس بالحاجة إلي دين جديد ، ولعله أحس بالحاجة إلي دين يؤلف بين هذه الجماعات المتباغضة والمتعادية ، ويخلق منها أمة قوية سليمة [١]

ويؤكد نجاح الرسول (ﷺ) في تأسيس هذا الدين – كما يزعم – ، ويصف هذا الدين بالسهولة والوضوح والقوة ، فيقول : " لقد كبح جماح التعصب والخرافات ، وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم دينا سهلاً واضحاً قوياً ، وصرحاً خلقياً قوامه البسالة والعزة القومية [٢]".

البعد الثاني : التصريح بأنه (ﷺ) ألف القرآن بنفسه ، وقد جاء ذلك في قوله : " ولم يعرف عن محمد (ﷺ) أنه كتب شيئاً بنفسه ، وكان بعد

---

(١) قصة الحضارة ، ديورانت ، المجلد السابع ، ١٣ / ٢٤ .

(٢) السابق ، ١٣ / ٤٧ .

الرسالة يستخدم كاتباً خاصاً له ، ولكن هذا لم يحل بينه وبين المجئ بأشهر وأبلغ كتاب في اللغة العربية (١) .

البعد الثالث : وفيه نحي " ديورانت " منحىً آخر أشد عمقاً في عرضه للشبهة حين حاول تأكيد زعمه هذا من خلال :

أ – زعمه تناقض الرسول (ﷺ) في وضعه تشريعات القرآن .

ب – زعمه أن الرسول (ﷺ) حاول جاهداً إقناع الناس أن هذا الكلام وحي الله إليه ، بهدف إقناعهم والإيمان به .

ج – زعمه أن هذه المحاولة كلفت الرسول (ﷺ) كثيراً في محاولة منه (ﷺ) لتكييف أسلوبه حتى يصطبغ بالصبغة الدينية .

فلتنظر – قارئي العزيز – إلي ما طرحته لك قبلاً من هذه الأمور الثلاثة في (أ – ب – ج) ثم تأمل قول " ديورانت " : " ولم يكن مشرعاً علمياً ، فلم يضع لأمته كتاباً في القانون أو موجزاً فيه ، ولم يسر في تشريعه على نظام مقرر ، بل كان يصدر الأوامر حسبما تمليه عليه الظروف .

وإذا أدي هذا إلي شيء من التناقض أزاله بوحي جديد ينسخ القديم ويجعله كأن لم يكن ، حتى شئون الحياة العادية كانت أوامره فيها تعرض في بعض الأحيان كأنها موحى بها من عند الله .

---

(١) السابق ، ١٣ / ٢٢ ..

وكان اضطراره إلى تكييف هذه الوسيلة السامية بحيث تتفق مع الشئون الدنيوية مما أفقد أسلوبه بعض ما كان يتصف به من بلاغة وشاعرية ، ولكن لعله كان يشعر بأنه بهذه التضحية القليلة جعل تشريعاته تصطبغ بالصبغة الدينية الرهيبة (١) .

وهكذا – وكما بدا من خلال النص السالف – زعم ديورانت أن القرآن الكريم من تأليف الرسول (ﷺ) ، وقد صبغه الرسول بصبغة الوحي ليحل عليه القداسة – كما زعم – مما استدعي ذلك أن يغير الرسول أسلوبه في أكثر من طريقة عرض !!! ولنا وقفة مع ذلك للرد والتفنيد .

---

(١) قصة الحضارة ، ول ديورانت ، المجلد السابع ، ١٣ / ٤٢ ، ٤٣ .

الشبهة الثانية : حول جمع القرآن وترتيب سوره :

يزعم "ديورانت " أن الرسول ﷺ ما أراد جمع القرآن كما فعل الصحابة من بعده،وذلك قوله:"ولكننا لسنا واثقين من أن محمداً كان يريد جمع هذه الأجزاء المتفرقة كلها في كتاب واحد،فقد كان كثير منها حديثاً لرجل بعينه في وقت بعينه ويصعب فهمه دون معرفة واسعة بتاريخ ذلك الوقت وتقاليد أهله"(١) .

ويزعم " ديورانت " – كذلك – أن عملية جمع القرآن وترتيب سوره كما هي عليه الآن لم تخضع لترتيب زمني أو منطقي ، ويمهد بذلك إلي حكمه مدعياً التكرار الذي أدي إلي عدم الانسجام بين آيات وسور القرآن .

يقول "ديورانت" : "لقد كان كل ما يوحي به يكتب ،ثم يحفظ مع الآيات السابقة دون أن يراعي في ذلك ترتيب زمني أو منطقي" (٢) .

ثم يحاول تأكيد ادعاءه الذي توصل إليه كنتيجة ارتآها لتلك المقدمة ، في قوله : " ومن شأن الظروف التى أحاطت بالقرآن أن تعرضه للتكرار وعدم الانسجام " (٣) .

ثم يحكم " ديورانت " حكمه المزعوم ، واصفاً القرآن بأنه تاريخ مقلوب ، حين تحدث عن ترتيب سور القرآن ، فزعم أنها : " مرتبة بحسب طولها ، لا بحسب نزولها ... فهو يبدأ بالسور الطوال وينتهي بالقصار ، وإذا كانت قصار السور بوجه عام أقدم عهداً من طوالها ، فإن القرآن تاريخ مقلوب " (٤) .

---

(١) قصة الحضارة ١٣ / ٥٠ .

(٢) السابق ١٣ / ٤٨ .

(٣) السابق ١٣ / ٤٦ .

(٤) السابق ١٣ / ٥٠ ، ٥١ .

الشبهة الثالثة : حول لغة القرآن

أثار : ديورانت " شبهة حول لغة القرآن الكريم ، تستحق وقفة معها ، حين تحدث عن أسلوب القرآن الذي حكم عليه بأنه وسط بين الشعر والنثر ، ثم عاد ليؤكد وجود فقرات موزونة مقفاة ، وبخاصة في السور المكية .

وهذا يجعلنا نلج باب تلك القضية لنطرح سؤالاً هو :

هل في القرآن شعر ؟

ونترك الإجابة عليه لمرحلة الرد والدحض والتفنيد الآتية فيما بعد، ونسطر ما قاله " ديورنت " حول هذه القضية ، وهو : " أسلوب القرآن وسط بين الشعر والنثر ، تتخلله كثير من الفقرات الموزونة المقفاة ، ولكنها لا تتبع أوزاناً ولا قوافي خاصة منتظمة ، وفي السور المكية الأولي نغمات موسيقية رنانة،وأسلوب جزل قوي لا يدركه كل الإدراك إلا الملمون باللغة العربية الذين يعطفون على الدين الإسلامي(١) .

وعلى أية حال : فلنترك هذا إلي وقت التفنيد ، ولنلتفت إلي شبهة أخري .

---

(١) قصة الحضارة ١٣ / ٥٢ .

الشبهة الرابعة : حول عموم لفظ القرآن وخصوص السبب فيه :

على ألسنة الكثيرين :

هذه الشبهة التى أثارها " ديورانت " لاكتها ألسنة كثيرة ، وتشدق بها كثيرون ، وهي حديث العلمانيين وأذنابهم في هذا الزمان وتلك القضية تتعلق بالحجاب وحدود الزينة في الإسلام ، من خلال خطاب القرآن لنساء النبي العدنان ، يأمرهن بالاحتجاب ، فهل هذا الأمر خاص بنساء النبي عليه الصلاة والسلام ، أم أن نساء المسلمين جميعاً يدخلن في دائرته طبقاً لقاعدة مقررة هي :

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؟!

القضية عند ديورانت غير ذلك تماماً ، فالآية في نظره خاصة بنساء المصطفى أمهات المؤمنين ، ولا تتعداهن إلى غيرهن من النساء المسلمات عموماً ، ويعتبر ديورانت أن من يفهم غير ذلك ، فهو ذو فهم قاصر يخالف الواقع العملي .

الواقع العملي – في نظره – أن نساء المسلمين كن يخرجن من البيوت بكامل حريتهن غير محجبات في أيام النبي (ﷺ) وفي القرن الأول بعد الهجرة .

ويزعم " ديورانت " هذا ويعتقد – دون مواربة – ويحدث به في قوله :

" وفي القرآن آية يأخذها بعضهم حجة على حجب النساء ، وهي: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [١] ، ولكن الآية إنما تؤكد النهي عن التبرج ، ويروي أن النبي أجاز للنساء أن يخرجن لقضاء حوائجهن ، أما زوجاته هو فقد طلب إلي أتباعه ألا يكلمهن إلا من وراء حجاب ، وفيما عدا هذه القيود فإن نساء المسلمين كن يخرجن من البيوت بكامل حريتهن غير محجبات في أيام النبي وفي القرن الأول بعد الهجرة " [٢] .

ولعمري هذا خلط واضح يحتاج إلي إزالة لبسه ، وكشف غموضه ، ولقد حان وقت المناقشة في المطلب القادم.

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٣٣.) ..

(٢) قصة الحضارة ١٣ / ٦٠ ، ٦١ .

المطلب الثاني

تفنيد شبهات "ديورنت" حول القرآن الكريم

ويشمل:

*** نظرة في العرض لتحديد مسار الرد .**

أولاً : الأدلة على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى .

ثانياً : القرآن : جمعه ، وترتيبه ، ووحدته الموضوعية .

ثالثاً : هل في القرآن شعر ؟!

رابعاً : فقه العموم والخصوص في القرآن : آية الحجاب أنموذجاً .

نظرة في العرض لتحديد مسار الرد .

القراءة المتأنية للعرض السابق تقودنا – إن شاء الله تعالى – إلى أن نضع أناملنا على مسار الدحض والرد والتفنيد :

فإذا زعم " ديورانت " أن الرسول (ﷺ) هو الذي ألف القرآن ، أوجب علينا هذا الزعم أن نقيم الأدلة العقلية الموضوعية على أن القرآن الكريم وحي الله تعالى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام ، وأنه لم يكن للرسول (ﷺ) فيه إلا التلقي والتبليغ للبشر حتى تتحقق سعادتهم دنيا ، وفوزهم ونجاتهم آخرة

وإذا زعم " ديورانت " أن القرآن تاريخ مقلوب ، ما روعي عند جمعه ترتيب زمني أو منطقي ، وإنما رتبت السور فيه بحسب طولها لا بحسب نزولها [١] . فإن هذا يقتضي منا حديثاً نكشف من خلاله عن ترتيب سور القرآن ... وهل كان ذلك بأمر الله لنبيه،أم أنه أمر النبي لصحابته،أم أنه من اجتهاد الصحابة؟!!

وسوف يكون الرد تحت عنوان : جمع القرآن وترتيبه .

كما فتح " ديورانت " من خلال حديثه عن لغة القرآن ، قضية هامة ، يجب ألا تمر علينا مرور الكرام ، وهي :

هل في القرآن شعر ؟

أمّا ما ذكره " ديورانت " عن عدم تفعيل قاعدة :

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

---

(١) راجع العرض ، السابق في هذه الدراسة .

وخاصة في عملية الحجاب ، زاعما أنه فهم متعسف ، وتحميل للآية فوق ما تحتمل ، لأن في آية : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى...... ﴾ [1] لزوجات المصطفى فقط ، ولا يتعداه إلي غيرهن من النساء – هكذا زعم – وعنده شبهة دليل على زعمه هذا يتمثل في أن نساء المسلمين كن يخرجن من البيوت بكامل حريتهن غير محجبات في أيامه (ﷺ)

هذا كله يستوجب أن نولي وجوهنا شطر علماء أصول الفقه في الإسلام لنزيل اللبس ، ونكشف الغموض حول قضية :

العموم والخصوص في الأمر والنهي

وبالجملة : فنظرتنا للعرض السابق حددت معالم الردمن خلال :

المسار الأول : الأدلة على أن القرآن الكريم كلام الله تعالي .

المسار الثاني :القرآن: جمعه ، وترتيبه ، ووحدته الموضوعية

المسار الثالث : هل في القرآن شعر ؟

المسار الرابع : فقه العموم والخصوص في القرآن .

آيه الحجاب أنموذجاً

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٣٣) .

أولا : الأدلة على أن القرآن الكريم كلام الله تعالي .

إذا زعم " ديورانت " أن القرآن من عند النبي (ﷺ) ، فإن البحث يجابه هذا الادعاء بإقامة أدلة واضحة دامغة على أن القرآن الكريم كلام رب العالمين ، وليس فيه لأحد من البشر شيء حتى النبي ﷺ ليس له فيه : إلا البيان والتبليغ .

والأدلة على أن القرآن الكريم كتاب الله تعالي كثيرة ومتنوعة ، ولعل من أهمها :

الدليل الأول : دلالة ضمير الرسالة في القرآن .

ويُعني به : ضمير الخطاب الموجه إلي رسول الله (ﷺ) ، فالرسول (ﷺ) مخاطب في القرآن ومأمور فيه .

يقول الدكتور / محمد الغمراوي :

إن القرآن يدل بنفسه على نفسه أنه من عند الله تعالي ، ولو أن المستشرقين كانوا مخلصين في طلب الحق لما زعموا أن القرآن من عند محمد (ﷺ) ، فليس يخاف عليهم أن محمداً (ﷺ) مخاطب فيه ، مأمور به ، وخطابه (ﷺ) بجميع صور الخطاب هو أول خصائص القرآن الواضحة التي تنقض ذلك الزعم .

ولو كان خطاب الرسول (ﷺ) مقصوراً على آية أو آيتين ، أو سورة أو سورتين ، لأمكن لزاعم أن يقول : إن ما وراء ذلك القرآن هو من عند النبي (ﷺ) لكن الخطاب على تنوع صوره ، وتعدد مقاصده ، منبث في القرآن كله بضمائر الخطاب وأفعال الأمر والنهي والنداء ، ولم يناد عليه السلام فيه باسمه ، ولكن بالنبوة أو الرسالة .

فإن نودي بغير﴿يا أيها النبي﴾[١]و﴿ يا أيها الرسول ﴾ [٢]، كما في ﴿ يا أيها المزمل ﴾ و ﴿ يا أيها المدثر ﴾ ، أتبع النداء بأمر يفيد النبوة أو الرسالة ، كما في ﴿قم الليل إلا قليلاً﴾ و ﴿ قم فأنذر ﴾ ، فضمير خطابه (ﷺ) في القرآن هو في الواقع ضمير النبوة أو ضمير الرسالة [٣] .

وأكثر أفعال الأمر وروداً في القرآن هو فعل (قل) كلمة من حرفين ، لكن أثرها في نفس القارئ وفي نقض زعم المستشرقين عجيب ، ويكبر أثرها ويعظم حين تتكرر في الآية الواحدة ، أو تتصدر في آيات متتالية ، كما تكررت مثلاً أربع مرات في آية :

١ – **قل** أي شيء أكبر شهادة .

٢ – **قل** الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهد ون أن مع الله آلهة أخرى .

٣ – **قل** لا أشهد .

٤ – **قل** إنما هو إله واحد وإنني برئ مما تشركون [٤] .

وخمس مرات في آية :

---

(١) وردت في القرآن كثيراً ، وعلى سبيل المثال : مفتتح سورة الأحزاب ، وجزء من الآية ٤٥ بها .

(٢) وردت في مواضع كثيرة منها : سورة المائدة ، من الآية ٦٧ .

(٣) الإسلام في عصر العلم ، د / محمد أحمد الغمراوي ، ص ١٧٢ ، ط دار الإنسان بالقاهرة ، ط ٤ ، عام ١٤١١ هـ ، ١٩٩١ م .

(٤) سورة الأنعام الآية (١٩) .

١ – **قل** من رب السموات والأرض .

٢ – **قل** الله .

٣ – **قل** أفا تخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً

٤ – **قل** هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم .

٥ – **قل** الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار (١) .

والأمثلة كثيرة .

وهذه الآيات التي ذكرت فيها كلمة " قل " ضرورة للنظم واحتباكه ، فلو حذفت " قل " هذه لا نفرط النظم ، ولفقد الأسلوب إعجازه ، ولولا تلك الكلمة ذات الحرفين لجاز لملحد أو مستشرق أن يقول : إنها من كلام النبي (ﷺ) أدرجت في القرآن ، لكنها تذكره – إن كان يتذكر – أن هذا القول غير جائز ، فلو كانت تلك الآيات من عند أحد من الناس لأسقطت كلمة " قل " عند التبليغ كما جري عليه الناس في أداء الرسائل (٢) .

فهذه أهم الخصائص الذاتية التي تثبت لكل ذي عقل أن القرآن من عند الله تعالي (٣) .

---

(١) سورة الرعد الآية (١٦) .

(٢) لم يذكرها الرسول (ﷺ) في كتابيه إلي هرقل والمقوقس لما ضمنهما آية ٦٤ من آل عمران ، فلم يكتب (قل يا أهل الكتاب) وإنما كتب : (يا أهل الكتاب تعالوا إلي كلمة سواء) ، وهذا ما جرت عليه العادة في الرسائل .

(٣) السابق ، ص ١٧٢ وما بعدها بتصرف .

الدليل الثاني : طريقة تناول السيرة الذاتية لشخص الرسول (ﷺ) وأسرته الكريمة .

سجل القرآن خصوصيات أسرة الرسول (ﷺ) ، بما لا يرغب الإنسان – عادة – في أن يعلمه غيره من الناس ، وهذا يدل دلالة أكيدة على أن الرسول ﷺ لم يتحدث بالقرآن الكريم من ذاته ، وبسبب ذاته ، فليس إنسان يتحدث من ذاته بسبب ذاته في إنتاجه الفكري [1] .

وحسبك من ذلك ما في مطلع سورة التحريم ، وتسجيلها لخصوصية من خصوصيات أسرة الرسول (ﷺ) على غير ما يرغب فيه البشر .

يقول الدكتور / محمد شامة :

" هذه الظاهرة تعد دليلاً على صدق محمد (ﷺ) في أنه رسول من عند الله تعالى ، وفي أنه لم يبلغ إلا ما أمر بتبليغه ، ذلك أن النفس البشرية تميل إلى الحديث عن الذات ، بل تحاول – إن أمكنها – أن ترسم لنفسها صورة وردية مضافاً إليها من الصفات الحميدة ما احتوت قواميس اللغة في هذا المجال .

ومحمد (ﷺ) ، وهو الكامل ولا شك في هذا ، وسلوكه يتفق مع تعاليم الحق جل وعلا ، مكلف أن يبلغ ما أمر به ، لا ما تميل إليه نفسه كإنسان .

إن الإسلام لا يتعلق بشخصية، بل بالعليم الحكيم رب كل شيء ، ولم يكن دور محمد (ﷺ) سوي وسيط مبلغ ومبين ، وينتهي هذا الدور

---

(١) نحو القرآن ، د / محمد البهي ، ص ١٧ ، بتصرف ، ط مكتبة وهبة بالقاهرة ، ط ١ عام ١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦ م .

بمجرد إتمام المهمة التى كلف بها ، أما الله تعالي فهو الباقي الحي ، ولم يكن من حكمته تعالي أن يتحدث عن شخص محمد (ﷺ) إلا في حدود التشريع فقط ، وهذا هو أسلوب الوحي في كل زمان ومكان .(١)

وهذا هو الدليل الصادق على أن القرآن كلام رب العالمين

الدليل الثالث : كون نظمه على غير عادة المؤلفين :

إذا نظرنا إلي نظم القرآن وطريقة تأليفه ، لوجدنا أنه على غير عادة البشر في النظم والتأليف :

فإذا نوقش فيه التاريخ – مثلاً – لم يناقش على الأسلوب السائد لكتابة التاريخ .

وإذا سيقت البحوث حول الفلسفة وما يتصل بأمور ما وراء الطبيعة لم تسق في مصطلحات تختص ببحوث الفلسفة والمنطق

وإذا ذكر الإنسان وما في العالم من موجودات لم يذكر على منهج العلوم الطبيعية .

وإذا تطرق الموضوع إلي شئون المدنية أو السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع لم يسلك مسالك علم الاجتماع من البحث .

وإذا أتى على ذكر من الأحكام القانونية وأصول التشريع لم يأت بصياغة يعتادها أصحاب التشريع وعلماء التقنين في هذا المجال ، وإذا

---

(١) الإسلام في الفكر الأوربي ، د / محمد شامة ، ص ٦١ ، ٦٢ بتصرف ، ط دار التراث العربي ، وتوزيع مكتبة وهبة بالقاهرة ، ط ١ عام ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م .

عرض تعاليمه في الأخلاق واستقامة السلوك رأيته يختار لها النمط الذي يغاير سائر ما دُوِّن في هذا الباب [١].

هذه الأدلة ... وغيرها كثير .... تنهض لتبين انه كلام رب العالمين

ثم : ألم يكن من الفخر للرسول (ﷺ) أن ينسب القرآن لنفسه إن صح الزعم أنه من تأليفه ؟ بدلاً من أن ينسبه إلي الله تعالي !!!

ألا يكفي أن الذي يزعم له اختلاق القرآن هو هو الذي ينفي ذلك عن نفسه ليدلنا على شيء خارج عن أفق العادة في كافة النواحي البشرية ، سيما أنه رجل أمي في أمة أمية كانت في أظلم عهود الجاهلية .

---

(١) المبادئ الأساسية لفهم القرآن ، أبو الاعلي المودودي ، ص ٤ ، ٥ ، ط دار التراث العربي ، بدون .

ثانيا : القرآن : جمعه وترتيبه ووحدته الموضوعية

أ – **جمع القرآن** : لقد مرت عملية الجمع بما يمكن أن نسميه : الأطوار الثلاثة :

أما الطور الأول : فقد كان في عهد النبي (ﷺ) حين ينزل عليه القرآن منجماً فيقرأه على أصحابه ، وكانت العناية القصوى منه (ﷺ) تتجه أساساً إلي حفظه وتلقفه حتى بلغ به الأمر انه كان يحرك لسانه عند نزوله خوف النسيان " (١) .

ويؤكد هذا الحرص ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله (ﷺ) كان يعاني من التنزيل شدة ، وكان يحرك به شفتيه ، فأنزل الله تعالي : لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه . فكان ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما أقرأه (٢)

وكان الصحابة رضي الله عنهم يتلقفون كلام الله بالحفظ في الصدور ، والكتابة في سطور على سعف النخل وقطع الجلد ... الخ بأمره (ﷺ) في وضع كل آيه في مكانها .

---

(١) المرشد الوافي في علوم القرآن ، د / محمود بسيوني فودة ، ص ١١٤ ، ١١٥ ط دار الطباعة المحمدية بالقاهرة .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب : كيف كان بدء الوحي ، باب : كان (ﷺ) يعاني من التنزيل شدة ، حديث رقم ٥ .

ينظر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني ، ١ / ٨٣ ، ط دار الغد العربي ، ط ١ عام ١٩٩٣ م .

وهذا ما أكده الإمام السيوطي حين قال :

جمع القرآن ثلاث مرات :

إحداها بحضرة النبي (ﷺ) .... والمراد به تأليف ما نزل من الآيات المفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي (ﷺ) [(١)]

تعليق : نستنبط من كلام الإمام السيوطي أن عملية جمع القرآن بدأ طورها الأول في عهده (ﷺ) ، وبين يديه ، وبأمر مباشر منه للصحابة أن يعملوا على حفظه ، فجمعه يؤدي إلى حفظه ، كما كان حفظه سبيلاً إلى جمعه .

وهكذا يتضح أن الأمر ليس كما زعم "ديورانت" من أنه ﷺ ما أحب جمعه ، ولا أمر به ، بل كان أمره (ﷺ) أمراً مباشراً وصريحاً لصحابته بتعهده وحفظه كمرحلة أولية سهلت عملية جمعه بعد ذلك في مصحف واحد .

ولكن : يحق لنا أن نتساءل :

لما ذا لم يجمع القرآن في مصحف واحد في عهده (ﷺ) ؟

والحق أن هذا لسببين :

الأول : وضحه الإمام السيوطي حين نقل عن الخطابي قوله :

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي ، ١ / ٧٦ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط ٤ ، عام ١٩٧٨ م .

" إنما لم يجمع (ﷺ) القرآن في المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة ، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر "(١) . رضي الله عنهما .

والثاني : هو ما أورده الدكتور / محمود فودة – رحمه الله تعالى – نقلاً عن الإمام الدكتور / محمد أبي شهبة ، ومفاده :

" أن ترتيب الآيات والسور لا يتفق ونزول القرآن ، فمن المعروف أن القرآن نزل على حسب الدواعي والأسباب ، فلو كتب القرآن في ذلك العهد ، والشأن كما ذكرنا ، لكان المكتوب عرضة للتغيير والتبديل والقشط والإزالة والمحو ، وهذا أمر فيه من الصعوبة ما فيه ، إذا أخذنا في الاعتبار صعوبة الكتابة وقلة الكتبة في ذلك الوقت ، ولما لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى وعُرف الترتيب الذي أراده الله للآيات والسور ألهم الله الخلفاء الراشدين فجمعوا القرآن في مصحف واحد وفي مكان واحد "(٢) .

الطور الثاني : الجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه : وقد كان ذلك بمشورة عمر رضي الله عنه ، بعد أن قتل عدد كبير من الحفاظ في موقعة اليمامة في حروب الردة التي كانت عقب تولي أبي بكر الخلافة مباشرة .

ولن نجد افضل من الإمام البخاري يصور هذا الطور ، حتى استقر الأمر ، وذلك ما رواه عن زيد بن ثابت قال : أرسل إليّ أبو بكر بعد مقتل

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي ، ١ / ٧٦ ، مرجع سابق .

(٢) المرشد الوافي في علوم القرآن ، د / محمود فودة ، ص ١٢١ ، نقلاً عن : المدخل لدراسة القرآن ، د / محمد أبو شهبة ، ص ٢٦٩ .

أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر – أي اشتد وكثر – يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإني أري أن تأمر بجمع القرآن ، فقلت لعمر : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله (ﷺ) ، قال عمر : هو والله خير ، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله (ﷺ) ، فتتبع القرآن . أجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرني به من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله (ﷺ) قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال ... فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر [١].

هذا وقد أثني الصحابة على عمل أبي بكر رضي الله عنه ، ومن صور الثناء ما قاله علي كرم الله وجهه : أعظم الناس في المصاحف أجرا أبو بكر،رحمة الله على أبي بكر ،هو أول من جمع كتاب الله [٢].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن ، حديث رقم ٤٩٨٦ .

ينظر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني ، ٩ / ١٠ ، ١١ ، ط دار المعرفة ، بدون .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ، للسيوطي ، ١ / ٧٦ .

الطور الثالث : في عهد عثمان ﷺ : لما اتسعت الفتوحات الإسلامية ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، ومعلوم أن القرآن نزل على سبعة أحرف ، فكانت كل مجموعة تقرأ بقراءة مختلفة

" وإذا اجتمعوا للجهاد ، وقرأوا القرآن ، وسمع المسلم من أخيه المسلم ما لا يعرفه من وجوه القراءة ، تنازعوا واختلفوا ، وجادل كل منهم غيره في قراءته ، واستفحل الداء حتى كفر بعضهم بعضاً ، ولم يقف هذا الاختلاف عند حد ، بل انتشر حتى وصل مكة والمدينة .

وأساس هذه الفتنة : تمسك كل مصر من الأمصار الإسلامية بقراءته التي يعرفها ، وعدم وجود مصحف يحسم هذا الخلاف، يلتزمون به جميعاً ولا يخرجون عنه في كتابتهم للقرآن وتلاوتهم له"[1] .

تصوير ما فعله عثمان (ﷺ) :

أخرج البخاري في صحيحه عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة وقال لعثمان : أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى . فأرسل عثمان إلي حفصة أن أرسلي إلينا الصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك ، فأرسلت بها إليه ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف .

---

(١) المرشد الوافي في علوم القرآن ، د / محمود فودة ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

قال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه نزل بلسانهم ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل في كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق [١] .

تعليق : بهذه الأطوار الثلاثة ، يتبين لنا أن الذي وضع لبنة جمع القرآن هو النبي العدنان ، وليس أنه كره ذلك ولم يأمر به ، كما زعم ديورانت ، ثم :

أتم الصحابة الأمر من بعده على يدي أبي بكر وعثمان .

والفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان – على ما أكده السيوطي [٢] أن جمع أبي بكر كان خشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته ، لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد ، فجمعه في صحائف مرتباً لآيات سوره على ما وقفهم عليه النبي (ﷺ) .

وأما جمع عثمان (ﷺ) فكان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرأوه بلغاتهم على اتساع اللغات ، فخطأ البعض البعض ، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد .

وبعد حديثنا عن الجمع ننتقل إلى الترتيب .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن ، حديث رقم ٤٩٨٧ .

ينظر : فتح الباري ، ٩ / ١١ ، مرجع سابق .

(٢) الإتقان ، ٢ / ٧٩ .

ب – ترتيب القرآن :

إذا زعم " ول ديورانت " أن ترتيب سور القرآن غير منطقي ، وأنه تاريخ مقلوب بدأ بالسور الطويلة وانتهي بالسور القصيرة ، وأنه ينبغي قراءته من السور القصيرة ابتداء... وانتهاء بالسور الطويلة (١)

إذا زعم ذلك ، فإن تفنيدنا لهذا الزعم يتطلب الحديث عن ترتيب القرآن كما فصل علماء علوم القرآن القول فيه .

أولاً : ترتيب الآيات : أجمع أهل السنة والجماعة على أن ترتيب الآيات في المصحف توقيفي لا شبهة في ذلك .

حكي هذا الإجماع الزركشي في قوله : الآيات في كل سورة ، ووضع البسملة أولها ترتيبها توقيفي بلا شك ، ولا خلاف فيه ، ولا يجوز تعكيسها .

قال القاضي أبو بكر : ترتيب الآيات أمر واجب وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول : ضعوا آية كذا في موضع كذا (٢) .

ومن الأدلة على أن ترتيب الآيات توقيفي : قول عثمان ﷺ : كان رسول الله (ﷺ) تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء

---

(١) راجع العرض السابق في هذه الدراسة .

(٢) البرهان في علوم القرآن ، للزركشي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ١ / ٢٥٦ ، ط دار المعرفة ببيروت ، ط ٢ عام ١٩٨٣ م .

دعا بعض من كان يكتب ، فيقول :-ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا [١] .

ثانيا : **ترتيب السور** : وأما ترتيب السور على الوضع الحالي في المصحف ، فللعلماء فيه :

الرأي الأول : أن هذا الترتيب باجتهاد من الصحابة .

وهو قول الإمام السيوطي [٢] . ومن نهج نهجه .

ودليل هذا المذهب يتلخص في : أن مصاحف الصحابة كانت مختلفة في ترتيب السور قبل أن يجمع القرآن في عهد عثمان (ﷺ) ، ومن ثم لو كان الترتيب توقيفياً منقولاً عن النبي ﷺ ما ساغ لهم أن يهملوه ويتجاوزوه على ما تصوره الروايات:

أن مصحف أبي بن كعب (ﷺ) كان مبدوءًا بالفاتحة ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران ثم الأنعام .

وأن مصحف ابن مسعود (ﷺ) كان مبدوءًا بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران .

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، ١ / ٢٠٨ ، تعليق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ط دار الكتب العلمية ببيروت ، لبنان ، بدون ذكر رقم الطبعة أو تاريخ الطبع .

(٢) راجع : الإتقان ، ١ / ٨٢ .

وأن مصحف الإمام علي كرم الله وجهه كان مرتباً على النزول ، فأوله : اقرأ ، ثم المدثر ، ثم ق ، ثم المزمل ، ثم تبت، ثم التكوير ، وهكذا إلى آخر المكي والمدني [١] .

المذهب الثاني : أن ترتيب السور كلها توقيفي كترتيب الآيات

ووجهة نظر أصحاب هذا المذهب : أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على المصحف الذي كتب في عهد عثمان بن عفان ﷺ، ولم يخالف منهم أحد . وهذا الإجماع لا يتم إلا إذا كان الترتيب الذي أجمعوا عليه عن توقيف ، لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المذاهب المخالفة بمخالفتهم [٢] .

الفريقان في الميزان ونظرة أخيرة :

إذا نظرنا إلى جوهر هذين الرأيين نجد فهم العلماء لها يقودنا إلى حقيقة واحدة ، وهي أن الرسول (ﷺ) هو الذي أمر بهذا الترتيب التوقيفي ، لكن مفاد الرأي الأول أنه توقيف على استناد فعلي ، ومفاد الرأي الثاني انه توقيف قولي صادر لفظاً عن النبي (ﷺ).

وإذاً : فالخلاف بين الفريقين خلاف لفظي فقط ، لكن الحقيقة مقررة

ويزداد الأمر وضوحاً بعبارات الإمام بدر الدين الزركشي الذي قال بعد أن ذكر الرأيين السابقين ، قال :

---

(١) دراسات في القرآن الكريم ، د / محمد إبراهيم الحفناوي ، ص ٦١ ، ط دار الحديث بالقاهرة ، بدون . .

(٢) السابق ، ص ٦٢ .

..... والخلاف يرجع إلي اللفظ ، لأن القائل باجتهاد الصحابة يقول : إنه رمز إليهم بذلك لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته ولهذا قال الإمام مالك : إنما ألفوا (رتبوا) القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي (ﷺ) مع قوله بأن ترتيب السور اجتهاد منهم .

فمآل الخلاف إلي أنه : هل ذلك بتوقيف قولي ، أم بمجرد استناد فعلي [١] .

تعليق : وهكذا يظهر أن الرأيين – في مضمونهما – رأي واحد يقودان إلي حقيقة واحدة ، هي أن الرسول (ﷺ) هو الذي أمر بترتيب السور ، فهو أمر توقيفي .

وهذا ما أكده أبو جعفر النحاس حين قال :

" المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ ، وروي ذلك عن علي بن أبي طالب ، ثم ساق بإسناده إلي أبي داود الطيالسي ... عن واثلة بن الأسقع أن النبي (ﷺ) قال : أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ، وأعطيت مكان الزبور المئين ، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني ، وفضلت بالمفصل [٢] .

قال أبو جعفر : وهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي (ﷺ) ، وأنه مؤلف من ذلك الوقت ، وأنه جمع في المصحف على شيء واحد ، لأنه قد جاء هذا الحديث بلفظ رسول الله (ﷺ) على تأليف القرآن " [٣] .

---

(١) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، ١ / ٢٥٧ .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ، ٤ / ١٠٧ ، ط المكتب الإسلامي .

(٣) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، ١ / ٢٥٨ .

وأخيراً : لقد ساق الإمام الزركشي عدة أسباب تؤيد وجهه النظر التى تؤكد أن ترتيب سور القرآن توقيفي ، وهي :

أحدها :بسبب الحروف كما في الحواميم .

وثانيها : لموافقة أول السورة لأخرها .

وثالثها : لموافقة أول السورة لآخر ما قبلها ، كآخر الحمد في المعنى وأول البقرة .

ورابعها : لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى مثل (والضحى) و (ألم نشرح) .

* **وبيان ذلك** :

أن سورة الفاتحة تضمنت الإقرار بالربوبية والالتجاء إليه في دين الإسلام ، والصيانة عن دين اليهودية والنصرانية .

وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين .

وآل عمران مكملة لمقصودها .

وأما سورة النساء فتتضمن جميع أحكام الأسباب التى بين الناس

وأما المائدة فسورة العقود ، وبهن تمام الشرائع (١) .

---

(١) راجع :

أ – البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، ١ / ٢٦١ ، ٢٦٢ .

ب – دراسات في القرآن الكريم ، د / محمد الحفناوي ، ص ٦٣ .

تعليق: لعل ما ذكرناه يدحض افتراء " ميورانت " ومن دار في فلكه ، ولف لفه ، وزعم مثل زعمه ، في أن القرآن تاريخ مقلوب ، يبدأ بالقصير وينتهي بالطويل ... ولقد تأكد لنا أمران :

الأول : أن ترتيب الآيات وترتيب السور في القرآن أمر توقيفي لا دخل لأحد فيه ، وهذا من مظاهر حفظ الله تعالى لكتابه المهيمن على جميع الكتب الذي يحوي الشريعة الخالدة الصالحة لكل زمان ومكان .

الثاني : بنظرة إلى هذا الترتيب المصحفي يتضح مدى الترابط بين سور القرآن ، إن في اللفظ ، وإن في المناسبة ... الخ مما يؤكد أنه صدر من حكيم عليم ، وأن القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

ولعل الأمر يزداد وضوحاً وجلاء حين نلج باب الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم .

ج – الوحدة الموضوعية :

تنويه : مما ينبغي لي أن أنوه به أن الحديث يتطرق إلى الوحدة الموضوعية رداً على ما زعمه " ديورانت " وسماه : عدم الانسجام بين سور القرآن ، وكثرة التكرار فيه دون داع .

وسبحان ربي !!! إذا كان " ديورانت " يري أن التكرار في القرآن دون داع ... وأنه أفقده الانسجام .

فإن المختصين من أهل علوم القرآن يرون ضرورة هذا التكرار وأنه أحد أسرار الإعجاز في القرآن .

وها هو ذا الدكتور / محمد محمود حجازي – صاحب مؤلف التفسير الواضح – قد نال درجة العالمية " الدكتوراه " من كلية أصول الدين في قسم التفسير وعلوم القرآن ، عن أطروحة بعنوان : الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم (١) .

هذا ، ولقد استهل الدكتور / حجازي رسالته ، فكان أول مبحث يلي المقدمة ، بعنوان :حتمية التكرار للموضوع الواحد ليتحقق المنهج الموضوعي للقرآن الكريم في أداء رسالته (٢) .

---

(١) أشرف عليها الدكتور / أحمد الكومي ، وناقشها : الإمام محمد أبو زهرة ، والدكتور / أمين أبو الروس ، وطبعتها دار الكتب الحديثة ، عام ١٩٧٠ م .

(٢) راجع : الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ، د / محمد محمود حجازي ، ص ٣٦ وما بعدها ، مطبعة دار الكتب الحديثة ، عام ١٩٧٠ م

وبيان ذلك أنه :

لما كان القرآن الكريم كتاب الله إلي الناس جميعاً ، جاء لينقذ البشرية من وهدة الضلالة ، ويأخذ بيدها إلي النور .

والناس مختلفون متباينون ، فمنهم الشقي ومنهم السعيد ، ومنهم من شرح الله صدره فهو على نور من ربه ، ومنهم من ختم الله على بصره وهذا ما أكده الحديث الشريف :

مثل ما بعثني الله به من الهدي والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخري إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به (١).

وإذا كان القرآن الكريم له أهداف وأغراض ؛ إذ هو كتاب الوجود من رب الوجود ، فهو إذاً لتحقيق هذه الأغراض .

وللوصول إلي هذه الأهداف ... ولتحقيق هذه الأغراض .... لابد أن يطرق الموضوع الواحد عدة مرات :

مرة بالشدة ... وأخري باللين

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب العلم ، باب فضل من علم وعلم ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه حديث رقم ٧٩ . ينظر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني ، ١ / ١٧٥ ط دار المعرفة بدون .

وتارة بالتصريح ..... وأخري بالتلميح

مرة بضرب الأمثال ... وأخري بتأييد المقال

فكان لابد في علاجه للأمراض المتوطنة من أن يسلك طرقاً متعدده ، وأساليب متباينة ، تبعاً لتباين الناس في استعدادهم ، وأن يمر بمراحل .. ويتطور في علاجه تبعاً لعمق الداء واستفحال المرض ، حتى يصل إلي العلاج الناجح والدواء الشافي (١).

تعليق : أرأيت كيف كان التكرار ضرورياً على ضروب مختلفة ليعالج أنواع البشر بمشاربهم المختلفة ، ومسالكهم المتعددة ، حتى في عرف الناس ومعاملاتهم : منهم من لا يأتي إلا بالشدة ، ومنهم من يأتي باللين ومنهم نفر وسط بين ذلك ، وما ينفع مع أهل الشدة لا يصلح لأهل اللين ، ... وهكذا ، وصدق من قال :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وإذ يزعم "ديورانت" أن الانسجام مفقود بين سور القرآن ، وآياته ، ويطلب منا أن نصدق زعمه هذا ، فإن :

هذا كلام له خبيء معناه ليس لنا عقول (٢).

---

(١) راجع :الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ، د / محمد حجازي ، ص ٣٧ وما بعدها .

(٢) البيت لأبي العلاء المعري .

ينظر : لزوم ما لا يلزم ، لأبي العلاء المعري ، شرح : نديم عدي ، ٣ / ١٢٢٧ ، ط دار طلاس بدمشق عام ١٩٨٦ م.

فإن الناظر للقرآن:آياته وسوره ، سوف يدرك – وبجلاء ، مع ذكاء وخبرة وصفاء – المناسبات بين الآيات والسور فيه .

مفهوم المناسبات بين الآيات والسور : بعيداً عن المعاني اللغوية :

التى تظهر أن المناسبة تعني المقاربة ، وفلان ناسب فلاناً : أى قرب منه وشاكله [١] . تجد الإمام الزركشي يعرفها بأنها :

أمر معقول ، إذا عرض على العقول تلقته بالقبول ، وبها يعرف قدر القائل فيما يقول [٢] .

من فوائد المناسبات بين السور والآيات :

١ – جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوي الارتباط ، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم ، المتلائم الأجزاء.

٢ ـ إظهار لطائف القرآن : فأكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط [٣] .

مرجع المناسبات بين السور والآيات : يكون إلي معني ما رابط بينهما : عام أو خاص ، عقلي أو حسي أو خيال ، ... وغير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني؛ كالسبب والمسبب ، والعلة والمعلول ، والنظيرين والضدين ونحوه ، أو التلازم الخارجي ؛ كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر .

---

(١) لسان العرب ، ابن منظور مادة نسب ، ١٤ / ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، ١ / ٣٥ .

(٣) السابق ١ / ٣٦ ، بتصرف .

أمثلة لإظهار بعض المناسبات : لقد ألف الإمام البقاعي سفرا عظيما في علم المناسبات ، جمع فأوعى ، وسماه :

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١) .

جاء في مقدمته : هذا كتاب عجاب ، رفيع الجناب في فن ما رأيت من سبقني إليه ، ولا عول ثاقب فكره عليه ، أذكر فيه إن شاء الله مناسبات ترتيب السور والآيات ، أطلت فيه التدبر ، وأمعنت فيه التفكر لآيات الكتاب، امتثالاً لقوله تعالى:﴿ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ ... وعلم المناسبات في غاية النفاسة ، نسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من علم النحو ، وقد قل اعتناء المفسرين به لدقته ... وأعرضوا عن هذه اللطائف ، غير منتبهين لهذه الأسرار ، وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل :

والنجم تستصغر الأبصار صورته

فالذنب للطرف لا للنجم في الصغر (٢)

المثال الأول : في مناسبة قوله تعالى : ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ**

---

(١) تحقيق : عبد الرزاق غالب المهدي ، ط دار الكتب العلمية ببيروت ، ط ١ عام ١٤١٥ هـ ، ١٩٩٥ م .

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ،الإمام البقاعي، ١ / ١ ، ٢ ، مرجع سابق .

صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ﴾ (١) .

بما قبلها من سورة البقرة،قال الإمام البقاعي –رحمه الله تعالى:

" ولما ثبتت هذه الأدلة ، وجب امتثال ما دعت إليه ، ولم يبق لمتعنت شبهة إلا أن يقول : لا أفعل حتى أعلم أن هذا الكتاب الذي تقدم أنه الهدي كلام الله ، قال مبينا إنه من عنده نظماً كما كان من عنده معنى محققا ما ختم به التي قبلها من أن من توقف عما دعا إليه من التوحيد وغيره لا علم له بوجه ، وأتي بأداة الشك مع علمه بحالهم تنبيها على أنه من البعيد جداً أن يجزم بشكهم بعد هذا البيان (وإن) أى : فإن كنتم من ذوي البصائر الصافية والضمائر النيرة علمتم بحقية هذه المعاني وجلالة هذه الأساليب وجزالة تلك التراكيب أن هذا كلامي ، فبادرتم إلى امتثال ما أمر والانتهاء عما عنه زجر ، (وإن كنتم في ريب) : أى شك محيط بكم من الكتاب الذي قلت – ومن أصدق مني قيلا – إنه لا ريب فيه " (٢) .

المثال الثاني : في مناسبة قوله تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولـئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ (٣) . بما قبلها من آيات تحويل القبلة ، وشرح ركن الحج ، قال الإمام البقاعي :

" ولما تم أمر القبلة وما استتبعه ، وختم بشريعة الحج المكتوبة على الناس عامة .. فحج الأنبياء من بني إسرائيل ... ثم أخفاها أهل الكتاب فيما أخفوه حسداً للعرب ، وختمت آية الحج بعليم ، رجع إلى أمر الكاتمين

---

(١) سورة البقرة الآيتان (٢٣ ، ٢٤) .

(٢) نظم الدرر ، البقاعي ، ١ / ٦١ ، ٦٢ ، بتصرف .

(٣) سورة البقرة الآية (١٦٠) .

الذين يكتمون الحق وهم يعلمون وأعظم ما كتموه أمر هذا الكتاب الذي هو الهدي المفتتح به السورة .

ولما بين جزاءهم استثنى منهم التائبين مبينا لشرائط التوبة الثلاثة فقال :

١ – (إلا الذين تابوا) : بالندم على ارتكاب الذنب .

٢ – (وأصلحوا) : بالعزم على عدم العود .

٣ – (وبينوا):ما كانوا كتموه فظهرت توبتهم بالإقلاع "[١]

تعليق : وهكذا يبدو لنا التناسق والتلاحم بين كل أجزاء القرآن ، وسبحان من وضع كل كلمة في موضعها وكل آية في مكانها ، وأنزل كل سورة في زمانها !

أمثلة على مناسبات فواتح السور وخواتمها :

المثال الأول : سورة القصص

بدايتها مبدأ أمر موسى ونصرته ، وقوله : ﴿ **فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ** ﴾[٢] . وخروجه من وطنه ، ونصرته ...

وختامها بأمر النبي (ﷺ) ألا يكون ظهيراً للكافرين ، وتسليته بخروجه من مكة والوعد بعوده إليها بقوله : ﴿ **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** ﴾[١] .

---

(١) السابق ، ١ / ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٢) سورة القصص الآية (١٧) .

المثال الثاني : سورة المؤمنون

جعل فاتحة السورة : (قد أفلح المؤمنون)

وأورد في خاتمتها : (إنه لا يفلح الكافرون)

المثال الثالث : في مناسبة فاتحة السورة بخاتمة التي قبلها :

وهي إما :

أ – ما يظهر تعلقها به لفظاً ، مثل : (فجعلهم كعصف مأكول) (لإ يلاف قريش) .

ب – ما يظهر تعلقها به معني ، فلقد ختم سورة النساء ، آمرا بالتوحيد والعدل بين العباد ، وأكد ذلك بقوله في أول سورة المائدة ، : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ ﴾ .... وهكذا دواليك (٢) .

وفي الختام : لعل ما ذكرناه يكون قد أماط اللثام ، موضحاً الحقيقة من الانسجام التام بين سور القرآن ، وآياته ، وهو علم كبير ، علم المناسبات الذي يرد زعم " ديورانت " ومن لف لفه أنه : لا انسجام بين سور القرآن ، وآياته لنزولها منجمة مفرقة .

العلماء المحققون : لعل من البصيرة النافذة أن يتوقع المحققون السابقون هذا الوهم الذي توهمه " ديورانت " ثم ردوه رداً أكيداً ، مع نفيه نفياً قاطعاً ، ودائماً : المحققون محقون ، وعلى الحق سائرون

---

(١) سورة القصص الآية (٨٥) .

(٢) راجع – لمزيد بيان : البرهان ، الزركشي ، ١ / ١٨٥ ، ١٨٦ .

ولقد أورد الإمام الزركشي هذا التوقع وتلك الشهادة[١] حين قال:

قال بعض مشايخنا المحققين : قد وهم من قال : لا يطلب للآي الكريمة مناسبة ؛ لأنها على حسب الوقائع المتفرقة . وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً ، وعلى حسب الحكمة ترتيباً ؛ فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون ، مرتبة سوره وآياته بالتوقيف .

وحافظ القرآن العظيم لو استفتي في أحكام متعددة،أو ناظر فيها ، أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل ، وإذا رجع إلي التلاوة لم يتل كما أفتي ، ولا كما نزل مفرقاً ، بل كما انزل جملة إلي بيت العزة

ومن المعجز البين أسلوبه ، ونظمه الباهر ، فإنه : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [٢] .

والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها ، أو مستقلة .

ثم المستقلة : ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟

ففي ذلك علم جم .

وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له

---

(١) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، ١ / ٣٧ .

(٢) سورة هود الآية (١) .

ثالثاً : هل في القرآن شعر ؟ !!

ينبغي أن ننوه إلى أن ولوجنا باب هذه القضية إنما قد جاء حين قال " ديورانت " إن القرآن خليط وأمشاج من الشعر والنثر ، وأكثر السور المكية فقرات موزونة مقفاة ... !

فأردنا أن نعالج أمرين :

الأول : هل في القرآن شعر ؟

الثاني : موقفه (ﷺ) – وهو المبلغ – من الشعر تحت ضوء آية : **﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ .... ﴾** [1] .

فهما قضيتان متلازمتان .

---

(١) سورة يس الآية (٦٩) .

نفي الشعر من القرآن (١)

نفي الله عز وجل الشعر عن القرآن وعن النبي عليه الصلاة والسلام ، فقال : " وما علمناه الشعر وما ينبغي له " ، وقال : " وما هو بقول شاعر " .

وهذا يدل على أن ما حكاه الكفار من قولهم : إنه شاعر ، وإن هذا – أي القرآن – شعر لابد من أن يكون محمولا على أنهم نسبوه إلي انه يشعر بما لا يشعر به غيره من الصنعة اللطيفة في نظم الكلام ، ولا أنهم نسبوه في القرآن إلي أن الذي أتاهم به هو من قبيل الشعر الذي يتعارفونه على الأعاريض المحصورة المألوفة . أو يكون محمولا على ما كان يطلق الفلاسفة على حكمائهم وأهل الفطنة منهم في وصفهم إياهم بالشعر ، لدقة نظرهم في وجوه الكلام ، وطرق لهم في المنطق ، وإن كان ذلك الباب خارجاً عما هو عند العرب شعر على الحقيقة

فإن قيل : إن في القرآن شعراً كثيراً ، منه ما هو مصراع كقول القائل :

قد قلتُ لما حاولوا سلوتي هيهات هيهات لما توعدون

ومنه ما هو بيت مثل

قوله تعالي :

" وجفان كالجواب وقدور راسيات "

---

(١) استعرت هذا العنوان من الإمام الباقلاني ، حين عنون به لفصل في كتابه : إعجاز القرآن ، للباقلاني ، ٥١ – ٥٦ ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، ط دار المعارف ، ط ٥ بدون .

وهو من بحر الرَّمَل وكقوله تعالى :

" ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً "

وهو من الرجز ... الخ

يجاب عن ذلك بما يلي (١) :

أولاً : أن المصراع الواحد ، أو البيت الواحد ، وما كان على وزنه لا يكون شعراً ، إذ أقل الشعر بيتان فصاعداً ، وإلى ذلك ذهب اكثر أهل صناعة العربية .

ثانيا : إن ما كان على وزن بيتين ، واختلف وزنهما أوقافيتهما فليس بشعر .

ثالثاً : وهو العمدة في القضية :

أن الشعر إنما يطلق متي قصد القاصد إليه على الطريق الذي يُتعمد ويُسلك ، ولا يصح أن يتفق مثله إلا من الشعراء دون ما يستوي فيه العامي والجاهل ، إذ لو صح أن يسمي كل من اعترض في كلامه ألفاظ تتزن بوزن الشعر ، أو تنتظم انتظام بعض الأعاريض ، كان الناس كلهم شعراء ؛ لأن كل متكلم لا ينفك من أن يَعْرِض في جملة كلام كثير يقوله ما قد يتزن بوزن الشعر وينتظم انتظامه .

ألا ترىَ إلي قول العامي : أغلق الباب وائتني بالطعام .

---

(١) لأجل ذلك : راجع :

أ – إعجاز القرآن ، للباقلاني ، ٥١ – ٥٦ ، مرجع سابق .

ب – البيان والتبيين للجاحظ ، ١ / ٢٨٨ ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ط ١ ، دار الجيل بيروت ، بدون .

يندرج تحت أحد بحور الشعر وهو بحر الخفيف

ولو أن رجلاً من الباعة صاح : من يشتري باذنجان ؟

كان قد تكلم بكلام موزون هو : مستفعلن مفعولات

فكيف يكون هذا شعراً وصاحبه لم يقصد إلى الشعر... !!!؟

لذلك : لا يعتبر شعراً ، ولا ما ورد في القرآن موزوناً ولا ما جاء في السنة لانعدام النية والقصد فيه

يقول ابن رشيق القيرواني :

" ويشترط فيه – أي الشعر – النية والقصد ، وعلى ذلك يخرج ما ورد من كتاب الله وسنة رسوله لعدم القصد والنية ، وإن كان كلاماً متزناً (١) .

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لابن رشيق القيرواني ، تحقيق وتعليق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ١ / ١١٩ ، ١٢٠ ، ط دار الجيل بيروت ، ط ٥ ، عام ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م .

يقول حسام الدين القدسي :

" لم يجر على لسانه (ﷺ) مما صح وزنه إلا ضربان من الرجز المشطور والمنهوك .

والرجز في أصله ليس بشعر ،وإنما هو وزن كأوزان السجع[1]

مع علماء العروض والقافية :

من النص السابق ظهر لنا بعض المصطلحات التى يجب أن نسأل فيها أهل الذكر من رادة علماء العروض والقافية ؛ حتى يتجلي لنا الأمر في أمور مثل :

الرّجز المشطور : ما سقط شطره ، أي نصفه ويكون النصف الباقي هو الصدر والعجز ، وتكون التفعيلة في آخره هي العروض والضرب على المختار .

العروض هو آخر تفعيلة في الشطر الأول .

والضرب هو آخر تفعيلة في الشطر الثاني من البيت .

ومثال المشطور : قول طرفة بن العبد :

---

(١) السيرة النبوية ، للحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق : حسام الدين القدسي ، ص ٣٢٥ ، ط دار الكتب العلمية ببيروت ، ط ٢ عام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

يالــك مــن قُبــرةٍ لمعمــــر

خلالك الجو فبيضي واصفري

قد وقع الفــخ فمــا تحــذري

وأما الرجز المنهوك فهو : ما ذهب ثلثاه ، مأخوذ من قولهم : نهكه المرض ينهكه وأنهكه ، ويكون عروضه ضربه .

مثل قول أبي نواس

إلهنــــا مـــا أعدلــك   مليك كل مــن ملــك

لبيك لا شريــك لــك   لبيك إن الحمــد لك [1] .

من الحكم إلي الحكمة : بعد أن أصدر أهل اللغة حكمهم ، وقالوا قولهم ، لا يمكن – اكاديمياً – أن تمر هذه القضية دون أن نولي وجوهنا شطر علماء الشرع ملتمسين الحكمة لديهم ، لتكتمل القضية في إطارين ، وتطير بجناحين :

---

(١) راجع :

أ – الكافي في العروض والقوافي ، للتبريزي ، ص ٧٩ وما بعدها ، ط مكتبة الخانجي ، عام ١٩٧٨ م ، بدون ذكر رقم الطبعة .

ب – عروض الشعر العربي بين التقليد والتجديد ، د / أمين عبد الله سالم ، ص ٥٦ – ٥٨ ، مطبعة منجد الحديثة ببنها ، عام ١٩٨٥ م .

ج – أوزان الشعر العربي وقوافيه : دراسة وتحليل ، د / إبراهيم محمد الإدكاوي ، ص ٧٧ ، ٧٨ ، ط مركز معالجة الوثائق ، ط ١ ، عام ١٤١٦ هـ – ١٩٨٦ م .

- **الشاعر والشارع** : يلفت الإمام الرازي نظرنا إلي لطيفة عند تفسيره لقول الله تعالي : (وما ينبغي له) مظهراً الحكمة وراء ذلك فيقول :

" ... وفيه وجه أحسن من ذلك ، وهو أن يحمل " وما ينبغي له " على مفهومه الظاهر ، وهو أن الشعر ما كان يليق به ولا يصلح له ، وذلك :

لأن الشعر يدعو إلي تغيير المعني لمراعاة اللفظ والوزن

فالشارع يكون اللفظ منه تبعا للمعني

والشاعر يكون المعني منه تبعاً للفظ : يقصد لفظاً به يصح وزن الشعر أو قافية فيحتاج إلي التحليل لمعني يأتي به لأجل ذلك اللفظ [1] .

- **الحكمة والمعني** : ولما كان المراد من الشعر حكمته ، وطيب معناه، كان هذا الذي يقصده ﷺ على ما أكده الإمام القرطبي في قوله:

" وكان (ﷺ) لا يقول الشعر ولا يزنه ، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلاً كسر وزنه ، وإنما كان يحرز المعاني فقط

ومن ذلك أنه أنشد يوماً قول طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك من لم تزوده بالأخبار

والوزن المستقيم : ويأتيك بالأخبار من لم تزود

كما أنه أنشد يوماً :

---

(١) مفاتيح الغيب ، الإمام الرازي ، تحقيق : طه عبد الرؤف سعد ، ١٣/ ١٧٥ ، ط دار الغد العربي بالقاهرة ط ١ عام ١٩٩٣ - ١٤١٣ هـ .

كفي بالإسلام والشيب للمرء ناهياً

فقال أبو بكر : يا رسول الله إنما قال الشاعر :

هريرة ودع إن تجهزت غاديا   كفي الشيب والإسلام للمرء ناهياً

فقال عمر : أشهد انك رسول الله ، فقد قال الله عز وجل : وما علمناه الشعر وما ينبغي له ..... (١) .

تعليق : هكذا أفصح الصبح لذي عينين ، واتضحت القضية سائرة على قدمين ، بل طائرة بجناحين ، هما :

أ – ليس في القرآن شعر

ب – لم يكن (ﷺ) شاعراً

ويجب أن ننتبه إلي أنه ﷺ لم يمنع الشعر من أجل أن كان قولاً فصلاً ، وكلاماً جزلاً ، ومنطقاً حسناً ، وبياناً بينا ، كيف ؟

وذلك يقتضي أن يكون الله تعالي قد منعه البيان والبلاغة ، وحماه الفصاحة والبراعة ... وهذا خلاف لما أجمع عليه من أنه ﷺ كان أفصح العرب " (٢) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٨ / ٥٤٩٥ ، ٥٤٩٦ ، ط دار الريان للتراث .

(٢) دلائل الإعجاز ، الإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، ص ٢٥ ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط خاصة لمكتبة الأسرة عام ٢٠٠٠ م

" **ديورانت " يرد بنفسه على نفسه** : بعد هذه الأقوال التي رددها " ديورانت " نجده يختم حديثه عن القرآن بكلام نود – نحن أيضاً – أن يكون ختام حديثنا بعد أن رددنا عليه ، وعلى القارئ الكريم أن يقارن بين هذين المقطعين ليدرك أن المستشرق يصحو حينا ويغفوا أحايين

يقول " ديورانت " :

" ولغة القرآن هي اللغة العربية الفصحى الخالصة ، وهو غني بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابة التي لا تلائم ذوق الغربيين ، وهو بإجماع الآراء خير كتاب وأول كتاب في الأدب النثري العربي " (١) .

وبعد معايشتنا لتلك القضية اللغوية ؛ نقطف ثمرة أخرى من ثمرات هذه الدراسة في قضية فقهية وأصولية .

---

(١) قصة الحضارة ، ول ديورانت ، المجلد السابع ، ١٣ / ٥٢ ، مرجع سابق

رابعا : فقه العموم والخصوص

آية الحجاب أنموذجاً

أثار " ديورانت " – كما بينا من قبل في العرض – شبهة مفادها : أن آية النهي عن التبرج خاصة بنساء الرسول وحدهن ؛ ولا تتعداهن إلى غيرهن من المسلمات ، واعتبر " ديورانت " أن الذي يفهم غير ذلك ذو فهم قاصر (١) ، ولا مجال لتطبيق قاعدة : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

ولقد أوقع " ديورانت " نفسه في مفارقة عجيبة بقوله : إنها تخص نساء النبي دون غيرهم من النساء ... ثم طلب " ديورانت " من باقي النساء أن يخرجن متبرجات ، لأنهن لم يدخلن في دائرة النهي في آية: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى ﴾ .

ونسي " ديورانت " أو تجاهل أن ملبس المرأة وزينتها منصوص عليه في آيات غير قليلة من سورة النور والأحزاب .

وتأسيساً على ذلك : يأخذ الرد مسارين لتحقيق أمرين :

الأول : **فقه العموم والخصوص** : لندرك من خلاله : ما الذي يجب علينا الاقتداء به فيما أمر الله به رسوله ، وما الذي هو أمر خاص به لا يتعداه .

الثاني : حدود الزينة وأمر الحجاب في الإسلام من خلال آيات أخري غير آية الأحزاب تلك .

---

(١) راجع العرض السابق في هذه الدراسة .

تقرير المبدأ : أجمع علماء علوم القرآن وأصول الفقه على تقرير قاعدة مفادها :

قد يكون السبب خاصاً والصيغة عامة ، لينبه على أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب (١) .

ومع ذلك : لا يستدل بالصيغة العامة إذا لم يظهر تقييد عدم التعميم ، ويستفاد ذلك من السياق ، ولهذا قال الشافعي :

اللفظ بين في مقصوده ، ويحتمل في غير مقصوده

مثال توضيحي : ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴾ (٢) .

القصد منها : إثبات الحكم في ترك أداء الواجب من الزكاة منهما

وفيها – أيضا – : دليل على وجوب الزكاة فيهما

وليس فيها : بيان مقدار ما يجب من الحق فيها (٣) .

ويزداد الأمر وضوحاً من خلال هذه القواعد :

---

(١) راجع :

أ – البرهان في علوم القرآن ، للزركشي ، ١ / ٣٢ .

ب – أحكام القرآن ، لابن العربي ، ٢ / ١٦٦ .

(٢) سورة التوبة الآية (٣٤) .

(٣) البرهان في علوم القرآن ، للزركشي ، ٢ / ١٨ .

قواعد أصولية :

خطاب للرسول (ﷺ) : هل يعم الأمة ؟

يجيب علماء الأصول : " من جهة العرف الشرعي : النبي ﷺ له منصب [١] : الاقتداء والمتبوعية ، فخطابه يفهم منه شمول اتباعه عرفا ، لأنهم مأمورون باتباعه إلا فيما دل الدليل الخاص على تخصيصه بذلك .

ومثال ذلك ، ودليله ، قوله تعالي : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٢]

ووجه الاستدلال من هذه الآية :

انه لو لم يكن من المفهوم عرف شرعي أن ما حكم له به يكون للمؤمنين لما احتاج إلي هذا القيد ، وهو : (خالصة لك من دون المؤمنين) .... [٣] .

---

(١) الأولي أن يقال : له موضع .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٥٠) .

(٣) أصول الفقه ، للإمام الشيخ / محمد الخضري ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ط دار إحياء التراث العربي ببيروت ، ط ٦ ، عام ١٩٦٩ م .

ونظير ذلك وشبيهه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ (١) .

فلو لم يكن للمسلمين ماله من الأحكام لما كان لهذا التعليق معنى

وإذا ثبت أن خطاب الرسول (ﷺ) يعم الأمة إلا ما اختص به من أحكام وبدليل صارف قاطع بقي عكس هذه القضية ، هو :

هل خطاب الله للأمة ينتظم الرسول (ﷺ) ؟

قرر علماء أصول الفقه : أن ما ورد في نصوص القرآن من خطابات عامة مثل : (يا عبادي) و (يأيها الناس) تنتظم النبي ﷺ ولا موجب لخروجه إلا بدليل خاص ، ولا فرق – والحالة هذه – فيما صُدِّر بقل ، وبين ما لم يصدر (٢) .

وبعد أن ثبتت القضية بجناحيها بقي الأمر الأهم القاطع ، وهو :

خطاب فرد من الأمة بحكم : هل يعم ؟

إذا وجهنا هذا السؤال لعلماء أصول الفقه – وهم أهل الذكر في هذا المجال -- كانت إجابتهم بلهجة حاسمة حازمة هي :

إذا خاطب الشارع فردا من الأمة أو حكم عليه بحكم : يكون هذا الحكم عاماً في الأمة إلا إذا قام دليل التخصيص ، فالعموم في عرف

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٣٧) .

(٢) السابق ، ص ١٦٨ .

الشارع ثابت قطعاً ، فإنه مما لا نزاع فيه أن الأمة كلها شرعٌ في الأحكام [١] .

بيان : تولدت بين أيدينا الآن – أكاديمياً – قاعدة ذهبية هي : الأمة كلها شرع في الأحكام ، إلا ما جاء الدليل قاضياً فيه بالتخصيص .

أو كان الخطاب للأمة فهو للرسول (ﷺ) ، إلا بدليل التخصيص

أو كان الخطاب (أمراً أو نهياً) لفرد من أفراد الأمة (مثل أزواج النبي (ﷺ)) فالحكم عام ، إلا بدليل التخصيص .

ونكرر لنقرر أنه مما لا نزاع فيه أن الأمة كلها شرع ، في الأحكام

إسقاط هذا المبدأ على فكر " ديورانت " إذا أسقطنا هذا المبدأ المقرر على ما زعمه " ديورانت " اختصاص أزواج النبي (ﷺ) بآية النهي عن التبرج ، وأن الحكم لا يتعداهن إلي غيرهن من النساء المسلمات ، إذا فعلنا ذلك رأينا هذا الزعم وقد اصطدم بما تقرر في صحيح الفكر الإسلامي ، فسقط زعم " ديورانت " يتهاوي غير مأسوف عليه

مع علماء التفسير : وإذا كانت جولاتنا في رحاب فكر علماء أصول الفقه قد قررت القواعد ، فإن علماء التفسير ساروا على هذه القواعد النظرية واضعين لبنات القواعد العملية .

مع الرد العملي على " ديورانت " : مضي المفسرون على ما قرره علماء أصول الفقه غير عابئين بهذه المزاعم التى تنم عن جهل من زعمها

---

(١) أصول الفقه ، للشيخ محمد الخضري ، ١٦٨ .

فهل هو ذا الإمام القرطبي يعلق على تلك الآية : ﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ فيقول :

" معنى هذه الآية الأمر بلزوم البيت ، وإن كان الخطاب لنساء النبي (ﷺ) فقد دخل غيرهن فيه بالمعنى هذا لو لم يرد دليل يخص جميع النساء . كيف والشريعة ملأى بلزوم النساء بيوتهن ، والانكفاف عن الخروج منها لضرورة " (١) .

بينما نجد الشيخ / محمد علي الصابوني يعلق على ما أورده الإمام ابن كثير حين قال : هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ

قال الشيخ الصابوني : ونساء الأمة تبع لهن في ذلك (٢) .

وبكل ما سبق يتأكد لنا زيف زعم " ديورانت " .

ونفتح له جبهة أخرى تلاحقه لتؤكد أمر الحجاب وحدود زينة المرأة المسلمة ، ومن غير آية الأحزاب تلك .

١ - يقول الله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ، ٨ / ٥٢١٦ .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير ، اختصار وتحقيق / محمد علي الصابوني ، ٣ / ٩٣ ، ط دار التراث العربي بالقاهرة ، عام ١٩٨٧ م .

يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

٢ – يقول الله تعالى : ﴿ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢)

٣ – يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٣) .

تعليق : في هذه النصوص أمر الله تعالي المرأة أمرا واضحاً لا لبس فيه ولا غموض بالحجاب الشرعي ليصون لها كرامتها،ويحفظها من نظرات السوء والتى كالسهام تسلط عليها(٤)

والأمر في النص الثالث – واضح وضوح الشمس في ضحاها أن الأمر بالحجاب لأزواج النبي ، ولبناته ، ولنساء المؤمنين جميعاً ، حتى يلزم " ديورانت " غرزه ويعلم أن (١) :

---

(١) سورة النور الآيتان (٣٠ ، ٣١) .

(٢) سورة النور الآية (٦٠) .

(٣) سورة الأحزاب الآية (٥٩) .

(٤) راجع – لمزيد من التوضيح :

الحجاب وحدود الزينة للمرأة المسلمة ، د / مبارك حسن حسين إسماعيل ، مقال بحولية كلية أصول الدين بالمنوفية ، ع ١١ ، ص ٩ – ٢٠ دار الاشعاع للطباعة ١٩٩١ م .

التشريع للأسرة يشغل جانباً كبيراً من تشريعات الإسلام ، وحيزاً ملحوظاً من آيات القرآن .

وإلي جوار التشريع كان التوجيه المستمر إلي تقوية هذه القاعدة الرئيسة التي يقوم عليها المجتمع ، وبخاصة فيما يتعلق بالتطهر الروحي ، وبالنظافة في علاقات الجنسين ، وصيانتها من كل تبذل ، وتصفيتها من عرامة الشهوة ، حتى في العلاقات الجسدية المحضة .

وفي آيات سورة الأحزاب توجيه لنساء النبي (ﷺ) في علاقتهم بالناس ، وفي خاصة أنفسهن ، وفي علاقتهن بالله :

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

فلننظر في وسائل إذهاب الرجس ، ووسائل التطهير ، التي يحدثهن الله عنها ، ويأخذهن بها ، وهن أهل البيت ، وأطهر من عرفت الأرض من النساء ، ومن عداهن من النساء أحوج إلي هذه الوسائل ممن عشن في كنف رسول الله (ﷺ) وبيته الرفيع .

---

(١) راجع : في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٥ / ٢٨٥٨ ، ط الشروق ، ط ٢٦ عام ١٩٩٧ م .

خاتمة

في خاتمة هذا البحث توصلت إلي النتائج التالية :

١ – ما زعمه " ديورانت " أن القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ !!! زعم باطل بأدلة واضحة، وبراهين ساطعة ، لعل من أهمها :

أ – دلالة ضمير الرسالة في القرآن الكريم ؛ فالرسول ﷺ مخاطب في القرآن ومأمور فيه ، وبذا يدل القرآن بنفسه على نفسه أنه من عند الله تعالي .

ب – طريقة تناول السيرة الذاتية لشخص النبي (ﷺ) وأسرته الكريمة ، وأسطع مثال على ذلك : مطلع سورة التحريم ... وهذا يدل دلالة أكيدة على أن الرسول (ﷺ) لم يتحدث بالقرآن الكريم من ذاته ولا بسبب ذاته .

ج – كون نظم القرآن على غير عادة المؤلفين من البشر في شتي مناحي العلوم ... في التاريخ ... والمدنية ... والسياسة ... والاقتصاد ... الخ .

د – أنه (ﷺ) لم ينسب القرآن إلي نفسه .

ألا يكفي أن الذي يزعم له تأليف القرآن هو هو الذي ينفي ذلك عن نفسه ، ليدلنا على شيء خارج عن أفق العادة في كافة النواحي البشرية ، سيما انه رجل أمي في أمة أمية كانت في أظلم عهود الجاهلية .

٢ – ما ادعاه " ديورانت " أن القرآن تاريخ مقلوب ، ما ووعي عند جمعه ترتيب زمني أو منطقي ، ورتبت السور فيه بحسب طولها لا بحسب نزولها ... ادعاء باطل لأن :

أ – مرت عملية الجمع بأطوار ثلاثة : إحداها كان بحضرة النبي ﷺ والمراد : تأليف ما نزل من الآيات المفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارته (ﷺ) .

ب – وإنما لم يجمع في عهده (ﷺ) ، لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه ... فلما انقضى نزوله بوفاته (ﷺ) ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك .. فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر رضي الله عنهما .

وأما جمع عثمان رضي الله عنه ، فكان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتى قرءوه بلغاتهم على اتساعها ، فخطأ البعض البعض ، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك ، فنسخ الصحف في مصحف واحد

ج – ترتيب الآيات في المصحف بإجماع أهل السنة والجماعة توقيفي لا شبهة في ذلك .

د – ترتيب سور القرآن أشار به النبي (ﷺ) ، ولا دخل لأحد فيه . وهو يوضح مدي الوحدة الموضوعية المترابطة بين سوره ، إن في اللفظ وإن في المناسبة ... مما يؤكد انه من حكيم عليم ... وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

٣ – ليس في القرآن شعر ؛ لأنه لا نية ولا قصد فيه ، على ما أكده ابن رشيق القيرواني بقوله : ويشترط في الشعر النية والقصد ، وعلى ذلك

يخرج ما وَرد من كتاب الله وسنة رسوله لعدم القصد والنية، وإن كان كلاماً متزناً ..

٤ – لم يكن (ﷺ) شاعراً .. (وما علمناه الشعر وما ينبغي له)

٥ – الأمة كلها شرع في الأحكام .. إلا ما جاء الدليل قاضياً فيه بالتخصيص وسواء كان الخطاب للرسول (ﷺ) فهو للأمة ، أو كان الخطاب للأمة فهو للرسول (ﷺ) ، إلا بدليل التخصيص ، أو كان الخطاب (أمراً أو نهياً) لفرد من أفراد الأمة (مثل أزواجه ﷺ) فالحكم عام إلا بدليل التخصيص ... وعلى ذلك :

لو أسقطنا هذا المبدأ المقرر على ما زعمه " ديورانت " اختصاص أزواج النبي (ﷺ) بآية النهي عن التبرج ، مدعياً أن الحكم لا يتعداهن إلى غيرهن من النساء المسلمات ... إذا فعلنا ذلك رأينا هذا الزعم مصطدماً بما تقرر في صحيح الفكر الإسلامي ، فسقط زعم "ديورانت" يتهاوى غير مأسوف عليه .

تنويه

في نهاية المطاف : ينبغي أن ننوه إلى أن هذا البحث هو الجزء الأوسط من دراستنا هذه ، عن :

شبهات " ديورانت " حول الإسلام

وعلى موعدة إن شاء الله تعالي وفي عام قادم – إن قدر المولي عز وجل – أن نواصل مسيرنا .

ونسأله سبحانه وتعالي العون والتوفيق

وكفي بربك هاديا ونصيراً

المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم .

ثانياً : المطبوعات :

١ - الاتقان في علوم القرآن ، للإمام السيوطي ،ط مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة ، ط ٤ عام ١٩٧٨ م .

٢ - الإسلام في الفكر الأوربي ، د / محمد شامة ، ط دار التراث العربي ، بالقاهرة ، وتوزيع مكتبة وهبة بالقاهرة ، ط ١ عام ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ .

٣ - الإسلام في عصر العلم ، د / محمد أحمد الغمراوي ، ط دار الإنسان بالقاهرة ، ط ٤ ، عام ١٤١١ هـ ، ١٩٩١ م .

٤ - أصول الفقه ، للإمام الشيخ / محمد الخضري ، ط دار إحياء التراث العربي ببيروت ، ط ٦ ، عام ١٩٦٩ م .

٥ - إعجاز القرآن ، للإمام الباقلاني ، تحقيق : السيد أحمد صقر، ط دار المعارف ، ط ٥ بدون .

٦ - أوزان الشعر العربي وقوافيه : دراسة وتحليل ، د / إبراهيم محمد الإدكاوي ، ص ٧٧ ، ٧٨ ، ط مركز معالجة الوثائق ، ط ١ ، عام ١٤١٦ هـ - ١٩٨٦ م .

٧ - البرهان في علوم القرآن ، للزركشي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ١ / ٢٥٦ ، ط دار المعرفة ببيروت ، ط ٢ عام ١٩٨٣ م

٨ - البيان والتبيين ، للجاحظ ، ١ / ٢٨٨ ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون ط دار الجيل بيروت ، بدون .

٩ – الجامع لأحكام القرآن ، للإمام القرطبي ، ط دار الريان للتراث بدون .

١٠ – دراسات في القرآن الكريم ، د / محمد إبراهيم الحفناوي ، ط دار الحديث بالقاهرة ، بدون .

١١ – دلائل الإعجاز ، الإمام عبد القاهر الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط خاصة لمكتبة الأسرة عام ٢٠٠٠ م .

١٢ – سنن أبي داود ، للحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ، تعليق / محمد محي الدين عبد الحميد ، ط دار الكتب العلمية ببيروت ، بدون .

١٣ – السيرة النبوية ، للحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق : حسام الدين القدسي ، ط دار الكتب العلمية ببيروت ، ط ٢ عام ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م .

١٤ – عروض الشعر العربي بين التقليد والتجديد ، د / أمين عبد الله سالم ، مطبعة منجد الحديثة بينها ، عام ١٩٨٥ م .

١٥ – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، لابن رشيق القيرواني ، تحقيق وتعليق : محمد محي الدين عبد الحميد ،ط دار الجيل بيروت ، ط ٥ ، عام ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م .

١٦ – فتح الباري بشرح صحيح البخاري،لابن حجر العسقلاني ، ١ / ٨٣ ، ط دار الغد العربي ، ط عام ١٩٣٣ م .

١٧ – في ظلال القرآن ، سيد قطب ، ٥ / ٢٨٥٨ ، ط الشروق ، ط ٢٦ عام ١٩٩٧ م .

١٨ – قصة الحضارة ، ول ديورانت ، ترجمة : محمد بدران ، المجلد السابع ، ١٣ / ٤٨ ، ٤٩ – ٥ – ١٣ / ٥٣ – ٥٨ .

١٩ – الكافي في العروض والقوافي ، للتبريزي ، ط مكتبة الخانجي ، عام ١٩٧٨ م ، بدون ذكر رقم الطبعة .

٢٠ – لزوم ما لا يلزم ، لأبي العلاء المعري ، شرح : نديم عدي ، ط دار طلاس بدمشق عام ١٩٨٦ م.

٢١ – المبادئ الأساسية لفهم القرآن،أبو الأعلي المودودي ، ط دار التراث العربي ، بدون .

٢٢ – مختصر تفسير ابن كثير ، اختصار وتحقيق / محمد علي الصابوني ط دار التراث العربي بالقاهرة ، عام ١٩٨٧ م .

٢٣ – المرشد الوافي في علوم القرآن ، د / محمود بسيوني فودة ط دار الطباعة المحمدية بالقاهرة .

٢٤ – مفاتيح الغيب ، الإمام الرازي ، تحقيق : طه عبد الرؤف سعد ط دار الغد العربي بالقاهرة ط ١ عام ١٩٩٣ – ١٤١٣هـ .

٢٥ – نحو القرآن ، د / محمد البهي ، ص ١٧ ، بتصرف ، ط مكتبة وهبة بالقاهرة ، ط ١ عام ١٣٩٦ هـ – ١٩٧٦ م .

٢٦ – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، للإمام البقاعي تحقيق / عبد الرازق غالب المهدي ، ط دار الكتب العلمية ببيروت ط ١ ،عام ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م .

٢٧ – الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم ، د / محمد محمود حجازي ، مطبعة دار الكتب الحديثة ، عام ١٩٧٠ م .

ثالثاً : الدوريات :

١ – مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية ، ع ١١ ، ط دار الإشعاع للطباعة ، ١٩٩١ م .

٢ – مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية ، ع ٢٢ ، ط دار حنون للطباعة ، ٢٠٠٣ م .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧٦٩
المطلب الأول:عرض شبهات "ول ديورانت" حول القرآن الكريم :	٧٧٢
أولاً : شذرات على طريقة عرض " ديورانت " للقرآن الكريم	٧٧٣
ثانياً : من مواطن الدقة عند " ديورانت "	٧٧٥
الأنموذج الأول	٧٧٧
الأنموذج الثاني	٧٧٧
الأنموذج الثالث	٧٧٧
ثالثاً : شبهات " ديورانت " حول القرآن الكريم :	٧٧٩
منهجه في إثارة الشبهات	٧٧٩
الشبهة الأولى : زعمه أنه (ﷺ) هو الذي ألف القرآن	٧٨١
أبعاد الشبهة	٧٨١
البعد الأول	٧٨١
البعد الثاني	٧٨١
البعد الثالث	٧٨٢
الشبهة الثانية : حول جمع القرآن وترتيب سوره .	٧٨٤
الشبهة الثالثة : حول لغة القرآن .	٧٨٥
الشبهة الرابعة:حول عموم لفظ القرآن وخصوص السبب فيه	٧٨٦
المطلب الثاني : تفنيد شبهات "ديورانت" حول القرآن الكريم :	٧٨٨
نظرة في العرض لتحديد مسار الرد .	٧٨٩
أولاً : الأدلة على أن القرآن الكريم كلام الله تعالى .	٧٩١

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الدليل الأول	٧٩١
الدليل الثاني	٧٩٤
الدليل الثالث	٧٩٥
ثانياً : القرآن : جمعه ، وترتيبه ، ووحدته الموضوعية :	٧٩٧
أ – جمع القرآن	٧٩٧
ب – ترتيب القرآن :	٨٠٣
أولاً : ترتيب الآيات .	٨٠٣
ثانياً : ترتيب السور	٨٠٤
تعليق	٨٠٦
ج – الوحدة الموضوعية	٨٠٩
مفهوم المناسبات بين الآيات والسور	٨١٢
من فوائد المناسبات بين الآيات والسور	٨١٢
مرجع المناسبات بين الآيات والسور	٨١٢
أمثلة لإظهار بعض المناسبات:	٨١٣
المثال الأول	٨١٣
المثال الثاني	٨١٤
تعليق	٨١٥
ثالثاً : هل في القرآن شعر ؟!	٨١٨
نفي الشعر من القرآن	٨١٩
نفي الشعر عن الرسول صلى الله عليه وسلم	٨٢٢
مع علماء العروض والقافية	٨٢٢

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
من الحكم إلى الحكمة	٨٢٣
الحكمة والمعنى	٨٢٤
تعليق	٨٢٥
" ديورانت " يرد بنفسه على نفسه	٨٢٦
رابعاً : فقه العموم والخصوص في القرآن : آية الحجاب أنموذجاً .	٨٢٧
حول فقه العموم والخصوص :	٨٢٨
تقرير المبدأ	٨٢٨
قواعد أصولية	٨٢٩
بيان	٨٣١
إسقاط هذا المبدأ على فكر " ديورانت "	٨٣١
مع علماء التفسير	٨٣١
خاتمة	٨٣٥
تنويه	٨٣٨
المصادر والمراجع	٨٣٩
فهرس الموضوعات	٨٤٣

والحمد لله في بدء وفي ختم